المحاضرة السابعة: مدارس الكتابـــة الفنية

مقدمة: كان المتقدمون من رجال الفصاحة والبيان لا يحفلون بالسجع جملة، ولا يقصدونه البتة، إلا ما أتت به الفصاحة في أثناء الكلام. واتفق من غير قصد ولا اكتساب، وإن كانت كلماتهم متوازنة، وألفاظهم متناسبة، ومعانيهم ناصعة، وعباراتهم رائعة، وفصولهم متقابلة، وتلك طريقة الإمام علي ومن اقتفى أثره من فرسان الكلام، كابن المقفع، وسهل بن هارون، والجاحظ وغيرهم من العلماء البلغاء.

ولم يلبث النثر العباسي كذلك، حتى زخر بتيارات أدبية أخرى، انفرد كل منها بسر من أسرار البلاغة، ولون خاص من ألوان البيان، ما عجل لظهور المدارس الكتابية، وقد التفت كل واحدة منها حول إمام بارز من أئمة البيان، ينهجون نهجه ويترسمون خطاه.

1. مدرسة الترسل الطبيعي: رائدها عبد الله بن المقفع، زعيم الكتاب في عصره، وأحد مخضرمي الدولتين، وقد أشار في وصاياه للكتاب، إلى طريقته الفنية في الكتابة، يقول: "وإياك والتتبع لوحشي الكلام، طمعا في نيل البلاغة، فإن ذلك هو العيّ الأكبر [...]عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة". ويقول بخصوص البلاغة:" الإيجاز هو البلاغة". و"البلاغة هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها". ويبدو أن الجاهل لن يظن ذلك إلا إذا رأى كلاما مألوفا واضح المعنى سهل الألفاظ لا تعقيد فيه ولا إبهام، فإذا حاول عجز، وهذا هو السهل الممتنع.

طابعها: قام أسلوب هذه المدرسة على الترسل الطبيعي وعماده الإيجاز والإرسال فلا سجع ولا ازدواج إلا ما جاء عفوا، وإلا ما جاء في مجال الحكم والأمثال، وكان إرسال الكلام فيها بلفظ سهل وأسلوب سلس، متين الربط، خال من المبالغات، يقول شوقي ضيف واصفا أسلوب رائد هذه المدرسة:"فليس في أساليبه عناية بالأخيلة، وكذلك ليس في أساليبه عناية بالسجع، ولا بهذا الترادف الصوتي [...] خلت أساليبه جملة من حلية الصوت وحلية التصوير، ومن أين يأتيه ذلك وهو لا يفكر في الجمال المادي للأسلوب وإنما يفكر في الجمال المعنوي".

2. مدرسة الترسل الصناعي: رائدها عبد الحميد الكاتب، وتعد هذه المدرسة نقطة تحول بارزة في تاريخ الكتابة، فقد جنحت بها، إلى حد ما، إلى الإطناب بعد الإيجاز، والازدواج بعد الإرسال. وحملت هذه المدرسة لواء البيان في القرنين الأولين، ولم تستطع مدرسة ابن المقفع أن تسامها أو أن تسايرها إلا مدة قرن من الزمان، ويرجع ذلك إلى أمور:

- أسلوب ابن المقفع أسلوب مترجم حريص على المعنى، تعوزه الحيوية والروح الأدبية. أما أسلوب عبد الحميد فأسلوب أديب بصير بمحاسن الطريقتين العربية والفارسية، يجمع بين السجع والازدواج من غير تكلف، ويستعين بالإطناب لإيضاح المعنى.

- قيام بلاغة ابن المقفع على الحكم والأمثال، وهي بلاغة تغذي العقل وتشبع الفكر، أما بلاغة عبد الحميد فتغذي العاطفة وتثير الوجدان، ومن ثم مال إليه الكثيرون، وعلى أوتاره عزف البرامكة وغيرهم من الكتاب الموالي.

والحقيقة التي لا يمكن نكرانها أن أساليب الرسائل في العصر العباسي الأول كانت دفعة بعيدة المدى لطريقة عبد الحميد وأن شخصيته الأصيلة لتتراءى بمعالمها الواضحة من خلال هذه الرسائل التي سالت بها الأقلام في الديوان وخارجه.

3. مدرسة التحليل والتفريع والاستطراد: تلك هي مدرسة الجاحظ التي حملت لواء البيان عبر القرون، منذ أواخر القرن الهجري الثاني، ولم تستطع المدارس التالية أن تطغى عيلها أو تطوي صفحتها، وحتى في عصرنا الحاضر، الذي مل السجع وألغاز البديع، وساد فيه الأسلوب المرسل، لم تتوقف لها موجة، ولم ينقطع لها تيار، تلمحها في التوازن والازدواج عند

مصطفى صادق الرافعي وحسن الزيات، والترديد والتكرار عند طه حسين، والتحليل والتعليل عند العقاد، والفكاهة والسخرية عند الشيخ عبد العزيز البشري.

وأما عن طابعها فقد استمدت هذه المدرسة أسلوبها من رافدين زاخرين: طريقة عبد الحميد القائمة على الإطناب والازدواج، وطريقة سهل بن هرون القائمة على التحليل والتعليل والجدل والحوار. وقد جمع الجاحظ في طريقته بين هاتين، وزاد على الأولى حسن التقسيم وجمال الإيقاع والتقصي وكثرة الاستطراد، وزاد على الثانية جانب الفكاهة الساخرة وتوليد المعاني، ثم أوغل في كل هذا بقوة حتى كان في إيقاعه أوقع وفي ازدواجه أمتع وفي تحليله أدق وأبرع، كما كان لبقا في حواره، قوي اللّدد في جداله، مريرا في تهكمه، يسيل رقة في طرائفه ونوادره.

وقد اقتدى بالجاحظ في أسلوبه كثيرون من المعاصرين واللاحقين كابن قتيبة والمبرد وقدامة والصولي والجرجاني والعسكري وأبي حيان والثعالبي.

4. مدرسة السجع والبديع: غلب السجع بأنواعه المختلفة على رسائل هذه المدرسة[1]، وصار صناعة فنية أصيلة لتجميل العبارة وزخرفة الأساليب، التي لم تخل أيضا من ألوان البديع الأخرى كالجناس والطباق والتورية أو غيرها من ضروب البيان التي يتجلى فيها عنصر الخيال كالتشبيه والاستعارة، ولكن هيهات أن يبلغ ذلك كله ما بلغه السجع من الشيوع والسيطرة على هذه الأساليب التي اقتربت من أسلوب الشعر، وزاحمته في ألفاظه ومعانيه ودواعيه.

ويعد ابن العميد بحق رائد هذه المدرسة الفينة الخالدة، التي كانت ولا تزال غرة في جبين النثر العربي، بطريقتها الفذة التي سحرت ألباب الأدباء وسيطرت على أقلام الكتاب، وقد جذبت هذه المدرسة أعلام العصر مأخوذين بفنها، مفتونين بسحرها، مشغوفين بتقليدها، ومن هؤلاء الصاحب ابن عباد، والصابي والخوارزمي، وبديع الزمان الهمذاني.

5. **مدرسة الألغاز والأحاجي:** مدرسة فريدة في بابها، جديدة في منهاجها، اتضحت معالمها في القرن الخامس الهجري، أسسها أبو العلاء المعري، وأعلى بناءها الحريري. وأما بخصوص طابعها فإن أبا العلاء، صاحب اللزوميات أو لزوم ما لا يلزم، اتجه إلى لون من التعقيد اللغوي والتلاعب بالألفاظ، وكأنما لم يكفه أن يصطنع ذلك في الشعر، فنقله أيضا إلى النثر. فإذا

---

[1]- **أنواع السجع: السجع نوعان:**

أ. العاطل: ويسمى أيضا الازدواج، وهو اتحاد الفواصل في "الوزن" دون "الروي"، وقد غلب على أسلوب القرنين الثاني والثالث.

ب. السجع الحالي: وهو الخطوة التالية لتطور الازدواج، فقد ضم إلى اتحاد الوزن اتحاد حرف الروي من الفواصل، وذلك ما طبعت عليه الكتابة منذ القرن الرابع الهجري، وفروع هذا النوع ثلاثة:

المرصع: هو أضيق الأنواع مجالا، وأعزها منالا، فهو الحلية اللفظية التي لا تقف عند تماثل الفاصلتين أو الفواصل، بل ترمي إلى استواء ألفاظ القرينتين كلها في الأوزان، كقوله تعالى:" إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ" أو كقول ابن العميد:"إن الدهر جرى على حكمه المألوف في تحويل الأحوال، ومضى على رسمه المعروف في تبديل الأشكال" وهذا هو الترصيع الكامل، وإذا حدث التوافق في أغلب الألفاظ دون الكل كان الترصيع ناقصا كقولنا"على أفصح الخطباء لسانا، وأوضح الكتاب بيانا" لانعدام المماثلة بين كلمتي [الخطباء والكتاب]. وهذا النوع أكثر من سابقه وقوعا في الكلام، من حيث إنه أقل مؤونة وجهدا على الكاتب.

المتوازي: هو ما اتفقت فواصله وحدها في الوزن والروي، ومن ثم كان أقل عبئا من الترصيع، وأخف جهدا على الكتاب، وفي القرآن كثير من أمثلته، قال تعالى:" فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ" أو قوله تعالى:" أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ، الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ، وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ، فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ، وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ".

المطرف: هو اتفاق الفاصلتين في حرف الروي دون الاتفاق في الوزن وعدد الحروف. ومن أمثلته قوله تعالى:" مَّا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا". فبين وقارا وأطوارا اتفاق في الروي دون الوزن وعدد الحروف.

كان الكتاب في سجعهم يقنعون باتحاد الفواصل في الحرف الأخير فقط، فلم لا يلتزم ذلك في حرفين أو أكثر؟ وإذا كان السجع قد اضطرهم إلى اصطناع الغريب فلم لا يلغز بما هو أغرب؟ فأبو العلاء لم يقف في تعقيده عند هذا الحد، بل كان يلغز بالإشارات التاريخية التي قد تدق عن الأفهام، وكذا بالمصطلحات النحوية التي يقحمها في تشبيهاته ويستعين بخصائصها في بث خواطره وأفكاره.

فمن التزامه في السجع ما لا يلزم، وتوظيف مصطلحات النحو قوله :" ورب ولي أغرق في الإكرام، فوقع في الإبرام، إبرام السأم، لا إبرام السلم. فحرس الله سيدنا حتى تدغم الطاء في الهاء، فتلك حراسة بغير انتهاء، وذلك أن هذين ضدان، وعلى التضاد متباعدان، رخو وشديد، وهاو وذو تصعيد، وهما في الجهر والهمس، بمنزلة غد وأمس. وجعل الله رتبته التي هي كالفاعل والمبتدأ، نظير الفعل في أنها لا تنخفض أبداً. فقد جعلني إن حضرت عرف شأني، وإن غبت لم يجهل مكاني، كيا في النداء، والمحذوف من الابتداء، إذا قلت زيد أقبل، والإبل الإبل، بعدما كنت كهاء الوقف إن ألغيت فبواجب، وإن ذكرت فغير لازب".

6. مدرسة الصناعة اللفظية: تمخضت عن المدرستان السابقتان- مدرسة ابن العميد المسجعة، ومدرسة أبي العلاء الملغزة- وكانت هذه المدرسة الجديدة تستمد مقوماتها من هذه وتلك، والتي أخذت مخايلها تتضح شيئا فشيئا منذ بداية القرن السادس الهجري.

يتمثل طابعها في أنها أوغلت في الزخرف اللفظي، وبخاصة التورية والجناس، ومن ثم ظهرت أساليبها المسجوعة موشاة بألوان البديع الأخرى من طباق ومقابلة وتلميح فضلا عن ترصيعها بآيات القرآن، وغرر الأقوال ومحكم الأمثال، وفرائد الشعر المنثور، وهكذا أضحت هذه المدرسة معرضا حافلا بمختلف الأساليب اللفظية البراقة.

ويعد القاضي الفاضل، بطريقته الفينة الخاصة، رائد هذه المدرسة، وإن لم يكن أول من طرق بابها ودق أطنابها، فقد تأصلت أساليبها على يديه، واستقامت طريقتها على طريقته وأخيرا عرف أسلوبها "بالطريقة الفاضلية". وجذبت هذه الطريقة الفاضلية نحوها أعلام العصر في كل مصر، وصار لها أنصار في شتى البقاع، شرقا وغربا، نخص بالذكر منهم: ابن الأثير، والعماد الأصفهاني، وابن الصيرفي.

وكمثال على أسلوب هذه المدرسة قول القاضي الفاضل في رسالة كتبها إلى الخليفة الناصر ببغداد يخبره بفتح القدس:"...قد أظفر الله بالعدو الذي تشظت قناته شفقا، وطارت فرقه فرقا، وفل سيفه فصار عصا، وصدعت حصاته، وكان الأكثر عددا وحصى، فكلت حملاته، وكانت قدرة الله تصرف فيه العنان بالعيان عقوبة من الله ليس لصاحب يد بها يدان، وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة، وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفة، ونام جفن سيفه وكانت يقظته تريق نطف الكرى من الجفون، وجدعت أنوف رماحه، وطالما كانت شامخة بالمنى أو راعفة بالمنون[...] فبيوت الشرك مهدومة، ونيوب الكفر مهتومة، وطوائفه المحامية مجتمعة على تسليم البلاد الحامية، وشجعانه المتوافية مذعنة ببذل المطامع الوافية، لا يرون في ماء الحديد لهم عصرة، ولا في فناء الأفنية لهم نصرة، وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وبدل الله مكان السيئة الحسنة، ونقل بيت عبادته من أيدي أصحاب المشأمة إلى أيدي أصحاب الميمنة...".